



خطبة صلاة الجمعة 19 / 2 / 2021 للشيخ الطبيب محمد خير الشعال، في جامع أنس بن مالك، دمشق - المالكي

(المروءة)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، وصفيه وخليله، خير نبي اجتباه، وهدى ورحمة للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كره، اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى، وأحثكم وإيائي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ لَنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة].

الوعي في اللغة يدل على فهم الشيء وحفظه وفقهه والإحاطة به. والأذن الواعية: هي أُذُنٌ سَمِعَتْ وَعَقَلَتْ مَا سَمِعَتْ، أو هي أُذُنٌ تحفظ ما سمعت، وتفكر فيه وتعمل بموجبه.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نَضَرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتي فَوَعَاها؛ ثم بلغها، فَرَبَّ مُبْلَغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ» [أخرجه الترمذي والطبراني واللفظ له وغيرهما].

هذه هي الخطبة الثامنة في سلسلة عناونها (توعية)، أعرض لكم فيها صوراً وأحداثاً من علاقاتنا الأسرية ومعاملاتنا المالية؛ صحيحة مرة لنُعَمِّمَ خيرها وننشر فضلها، وخاطئة أو مخطئة مرة لنَحْدَرُ شرها ونترك فعلها؛ وفي كلتا الحالتين نفيد وعياً وفهماً.

يجب الإسلام أن يتحلى أبناؤه بالعلم، ويتزينوا بالفهم، ويتجملوا بالحكمة، ويتمسكوا بالتعقل والتدبر والوعي.

وعلى الطرف الآخر يكره الإسلام مخالطة الجاهلين، وصحبة السفهاء والمغفلين.

حديث خطبة اليوم عن خُصلةٍ رفيعة الشأن، تزكي المرء وتعلي قدره عند ذوي الأقدار، وتشرح صدره ترفع ذكره في مجالس الأذكار.

يتحدّث عن معناها أهل الشريعة عند حديثهم عن العدول من نقلة الأخبار، وأهل الفقه والقضاء عند حديثهم عن العدول من الشهود والأئمة والقضاة، وأهل الأدب عند حديثهم عن أولي الأحلام والنهى من الرجال، وأهل الأخلاق عند حديثهم عن محاسن الأخلاق، تلك الفضيلة هي: المروءة.

عنوان خطبة اليوم: المروءة.

المروءة: هي اجتناب المرء ما يَشِينُهُ واجتنائُهُ ما يَزِينُهُ.

والمروءة: هي ترك كل ما يحط من قدر الإنسان في العرف الاجتماعي الصحيح.

والمروءة: هي ألا يأتي الإنسان ما يُعْتَدَرُ منه مما يحط مرتبته عند أهل الفضل.

والمروءة: هي صيانة النفس عن كل خلق رديء، والتحلي بالسمت الحسن، والكلام الرصين.

وللمروءة -أيها الإخوة- آداب وخصال ترفع شأن حاملها وتعلي شأؤ صائنها، والمتوقع من كل منا أن يجهد ويجتهد بالتحلي بها لتكون المروءة له طبعاً والصيانة له سمتاً.

وها أنا أعرض لكم عدداً من هذه الآداب والخصال:

- فمن أدب صاحب المروءة: أن يضبط نفسه عن هيجان الغضب، أو دهشة الفرح، ويقف موقف

الاعتدال في حالي الضراء والسرائ ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (22) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿ [الحديد: 22، 23].

شتم رجل رجلاً فقال له: يا هذا لا تغرق في شتمنا ودع للصالح موضعاً، فإني أبيت مشاتمة الرجال صغيراً، فلن أجيئها كبيراً، وإني لا أكافيء من عصى الله فيّ بأكثر من أن أطيع الله فيه.

ولست بمفراح إذا الدهر سَرَّني ولا جازع من صرْفِه المتقلِّبِ

ومن هنا نرى ذا المروءة لا تطيش به العطايا، ولا تزري به البلايا.

عدل معاوية عن تولية الأحنف بن قيس ثغر الهند، فقال له زياد: إن الأحنف بلغ من الشرف والحلم والسؤدد ما لا تنفعه الولاية، ولا يضره العزل.

وقال قاضي قرطبة محمد بن بشير: والله! لا أبالي في الحق من مدحني أو ذمّني، وما أُسرُّ للولاية، ولا أَسْتوحش من العزل.

- ومن أدب صاحب المروءة: الصراحة في أدب والترفع عن المواربة والنفاق، فلا يبدي لشخص الصداقة، وهو يحمل له العداوة، ولا يصوب فعله في الظاهر وهو يعتقد خطأه في الباطن.

ذُكِرت امرأة حامل بسوء عند عمر رضي الله عنه، قد غاب زوجها، وأنه كان يدخل عليها الرجال، فبعث إليها فقالت: (يا ويلها، ما لها ولعمر)، فبينما هي في الطريق ضربها الطلق لخوفها من عمر فألقت ولداً، فصاح الصبي صيحتين، ثم مات، فاستشار عمر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فأشار بعضهم أن ليس عليك شيء، إنما أنت وال ومؤدّب، وصمّت عليّ، فأقبل عليه عمر، فقال: ما تقول يا أبا الحسن؟ فقال: إن كانوا قالوا برأيهم فقد أخطأ رأيهم، وإن كانوا قالوا في هোক، فلم ينصحوا لك، إن ديتك عليك؛ لأنك أفرعتها فألقته، وضمن عمر دية الجنين.

فصاحب المروءة صريح في أدب، مترفع عن النفاق والمداهنة.

- ومن أدب صاحب المروءة: ألا يفعل في الخفاء ما لو ظهر للناس لعدّوه من سقطاته.

قال سيدنا معاوية: المروءة: ترك اللذة، وعصيان الهوى أي اللذة المحظورة، وقال محمد بن عمران لما سئل عن المروءة: ألا تعمل في السر ما تستحي منه في العلانية.

- ومن أدب صاحب المروءة: أن يحفظ لسانه من أن يلفظ مثلما يلفظ أهل الخلاعة من سفه القول، أو يطلق لسانه في أعراض الناس يلتقط معانيهم، أو يختلق لهم معائب.

قال رجل لعمر بن العاص: والله لأتفرّغنّ لك، لئن قلت لي كلمة لأقولنّ لك عشرا. قال: وأنت والله لئن قلت لي عشراً لم أقل لك واحدة.

وَأَجْرًا مَنْ رَأَيْتُ بَظْهَرٍ غَيْبٍ عَلَى عَيْنِ الرِّجَالِ ذُووِ الْعُيُوبِ

- ومن أدب صاحب المروءة: أن يتجنب استخدام ضيفه.

قال عمر بن عبد العزيز: "ليس من المروءة استخدام الضيف".

- ومن أدب المروءة: حسن إصغاء الرجل لمن يحدثه.

قال أبو تمام:

وَرَضِيْتُ كَانَ الْجَلْمُ رَدَّ جَوَابِهِ

مَنْ لِي بِإِنْسَانٍ إِذَا أَغْضَبَتْهُ

وَبَسَمِعِهِ وَلَعَلَّهُ أَذْرَى بِهِ

وَتَرَاهُ يُصْنَعِي لِلْحَدِيثِ بِقَلْبِهِ

- ومن أدب صاحب المروءة: أن يحتمل ضيق العيش، ولا يظهر الشكوى من حوادث الدهر، فماء الحياء عنده أغلى من ماء الحياة:

لا يفرحونَ إذا ما الدهرُ طَاوَعَهُمْ يوماً يُبْسِرُ ولا يشكونَ إن نُكِبُوا

- ومن أدب صاحب المروءة: أن يكون حافظاً لما يؤتمن عليه من أسرار.

أخرج البخاري ومسلم عن ثابت البناني تلميذ سيدنا أنس بن مالك عن أنس بن مالك رضي الله عنه: قال: «أتى عليّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وأنا ألعبُ مع الغلمان، فسَلَّم علينا وبعثني إلى حاجة، فأبطأتُ على أمي، فلما جئتُ قالت: ما حَبَسَكَ؟ قلت: بعثني رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في حاجة، قالت: ما حاجته؟ قلت: إنها سِرٌّ، قالت: لا تُحَدِّثَنَّ بِسِرِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أحداً، قال أنس: والله لو حَدَّثْتُ أحداً لحدثتك يا ثابتُ».

- وذو المروءة يحذر أن يؤذي شخصاً، وأشد ما يحذر أن يؤذي ذا مروءة مثله:

وأستحيي المروءة أن تَراني قتلْتُ مُناسبي جَلداً وقَهراً

- من أدب صاحب المروءة: أن يكون ذا أناة وتؤدة، فلا يبدو في حركاته اضطراب أو عجلة؛ كأن يكثر الالتفات في الطريق، ويعجل في مشيته العجلة الخارجة عن حد الاعتدال.

وكذلك يكون ذا أناة في كلامه، يرسل كلماته مفصلة، ولا يخطف حروفها خطفاً حتى يكاد بعضها يدخل في بعض.

أخرج البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها «أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم كان يحدث حديثاً لو عَدَّهُ العادِ لأحصاه» وفي رواية الترمذي قالت: «ما كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يسرد كسرِدكم هذا، ولكنه كان يتكلم بكلام يُبَيِّنُهُ، فَصَّلَ، يَحْفَظُهُ مَنْ جَلَسَ إِلَيْهِ»

أيها الإخوة:

هذه طائفة من آداب المروءة وخصالها، واعلموا أن في المروءة راحة ولذة تفوق كل نعيم في هذه الحياة، وإذا كان في حفظ المروءة كلفة ومشقة، فإن عزة النفس وراحة الضمير التي يجدها الرجل عندما يبلغ في المروءة غاية سامية تنسيه كل مشقة، ولا يبقى معها للتعب باقية.

تَلَدُّ له المروءةُ وهي تُؤْذي ومَنْ يَعْشَقُ يَلَدُّ له الغرامُ

ثم إنّ ذا المروءة حقيق بالإجلال: وتمتليّ الأعين بمهابته. ومن الحكم السائرة: "ذو المروءة يُكرم وإن كان معدماً، كالأسد يُهاب وإن كان رابضاً، ومن لا مروءة له، يُهان وإن كان موسراً؛ كالكلب يُهان وإن طوّق وحُلّي بالذهب".

وإن الرجل ذا المروءة ليكون خامل الذكر خافض المنزلة، فتأبى مروءته إلا أن يستعلي ويرتفع كالشعلة من النار التي يصونها صاحبها وتأبى إلا ارتفاعاً.

فحقيق بنا أن نربي أنفسنا وأبناءنا على رعاية المروءة وآدابها لننال لذتها وبركتها.

ففي حديث رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ مَعَالِيَ الْأُمُورِ وَأَشْرَافَهَا، وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا» [الطبراني].
[الخطبة مختصرة بتصرف من مقالة للشيخ محمد الخضر حسين كما في أعماله الكاملة].

والحمد لله رب العالمين